الفصل الثالث
سيكولوجية الحرب من منظور الإسلام

- تمهيد.
- المبحث الأول:أهداف وغايات الحرب في الإسلام.
- المبحث الثاني:أخلاقيات الحرب في الإسلام.
- المبحث الثالث:مبادئ الحرب التي طبَّقها النبي الكريم.

تمهيد:

لم يكن هدف الحرب في الإسلام في يوم من الأيام القتل والتدمير والتخريب واستعمار واستغلال مقدرات الشعوب والأمم ، ولم تكن تهدف إلى إجبار الناس على إتباع شيء لا يريدونه بالقوة ، بل إنها كانت حربا عادلة ، أخلاقية ، لها أهداف سامية ،ونبيلة ، وكان هدفها إخراج الناس من الظلمات والجهالة والتخلف ،... إلخ إلى نور الإسلام وعدله وسماحته ورحمته ،لم تكن حربا عدوانية، بل إنها كانت لرد العدوان إذا ما وقع على ديار الإسلام والمسلمين ، لذا فقد كانت مهمة الفتح الإسلامي مهمة ميسرة وسهلة ،حتى أنها خلال زمن قياسي بلَّغت رسالة الإسلام إلى معظم أجزاء العالم المعروف آنذاك ، وذلك برضا وقبول وترحيب من اهل الديار التي دخلها المسلمون وذلك لما شاهدوه من رحمة المسلمين الفاتحين وأخلاقهم، وفي هذا الصدد يقول (جوستاف لوبون) في كتابه "حضارة العرب " :" إن العالم لم يعرف فاتحًا أرحم من المسلمين "، وفي قادم الصفحات سنعرض لهذه الحرب الأخلاقية أهدافها وغاياتها ومسيرتها ومواقف خالدة منها .

تحديد المفاهيم :

لابدَّ لنا قبل التفاصيل في هذا الموضوع أن نعرف بعض المفاهيم التي سنستعملها بكثرة في هذا الفصل والتي من أهمها :

- الحرب العادلة : " هي الحرب التي توجة ضد شعب ارتكب ظلما نحو شعب آخر ولم يشأ رفعة ، ويشترط فيها أن تكون مطابقة للقواعد الإنسانية ، وتكون بهدف تحقيق سلم دائم، كما يشترط فيها احترام حياة وأملاك الأبرياء وحسن معامله الأسرى والرهائن ."

- معنى القتال في الإسلام : "هو قتال العدو لتأمين حرية نشر الدعوة وتوطيد أركان السلام، مع مراعاة حرب الفروسية الشريفة في القتال ."

- حرب الفروسية:هي كفاح شرف لا يجوز أن يلجأ المحاربون فيه إلى عمل إجراء يتنافى مع الشرف "[٧٩] .

---

(٧٩) محمود شيت خطاب ، مصدر سابق ، ص ١٧ -١٩ .

المبحث الأول

أهداف الحرب في الإسلام وغاياتها

سبق أن أسلفنا أن الحرب في الإسلام لم يكن مقصدها التدمير والتخريب وقتل الأبرياء وترويع الآمنين ، بل أن مقاصدها وغاياتها شريف ونبيلة، وهي تتلخص فيما يلي:

١. تامين حرية نشر الدين :

القاعدة الربانية التي بنى عليها المسلمون عقيدتهم القتالية في هذا الخصوص هي قوله تعالى: (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الْغَيِّ) (البقرة: ٢٥٦)، لذا فإن اعتناق واتباع الدين في الإسلام ليس بالاكراه وبحد السيف ، بل هو بالدعوة اللينة الحسنة ، المبنية على أسلوب الإقناع وليس الإكراه والإجبار ، قال تعالى:(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (النحل: ١٢٥) لذلك فإن أسلوب الإسلام في جذب الناس إلى الدين هو الحكمة والموعظة الحسنة والإقناع العقلي لذلك فإن المسلمين لم يقاتلوا من اجل اجبار الناس على اعتناق الإسلام بالقوة، بل كان الهدف هو تأمين الحماية لحرية العقيدة وتأمين حرية انتشارها بين الناس ، لأن الإسلام قد صان حرية الرأي والتعبير وضمنها للناس ، وذلك قبل أن تتنادى إليها الأمم المتمدنة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بالآلاف السنين، وترك للناس الحرية في اتخاذ الطريق الذي يريدون متحملين مسئولية اختيارهم ، قال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (يونس ٩٩)، وهذا يدل على حضارية الإسلام وشموليته وإنسانيته.

أما ما يقوله غير المسلمين بحقهم ، فهي شهادات كثيرة حيث يقول (جوستاف لوبون) :" إن القوة لم تكن عاملاً في نشر القرآن ، وإن العرب تركوا المغلوبين أحرارًا في أديانهم ....." ، هذه شهادة من مفكر غربي ليس بمسلم، ولعمري إن شهادة الأعداء هي أبلغ من شهادة الأصدقاء لأنها تمتاز بالحياد والبعد عن التحيز.

٢. الدفاع عن الدعوة :

لابد أن تكون الدعوة محفوظة ومصونة من عبث العابثين ومن اعتداء المعتدين لتكون عزيزة الجانب مهيبة الحمى، لقد تعرض المسلمون في بداية الدعوة إلى ألوان مختلفة من العذاب والظلم والاعتداء ، لدرجة أنهم هاجروا وتركوا أموالهم وديارهم وأهليهم ، وجلسوا في المدينة يتحملون الظلم ويصبرون عليه ولم يردوا بالحرب والعدوان منتظرين أمر الله، حيث كان يقول لهم (صلى الله عليه وسلم) :" لم أومر بقتال ، لم أومر بقتال " ، إلى أن جاء

أمر الله بالدفاع عن الدعوة ورد الظالمين، وحماية الدين وتوفير الأجواء المناسبة لهم للعبادة ونشر الدين الجديد وتأمين حمايته ، حيث قال تعالى:(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) (الحج: ٣٩)، عندها استجاب المسلمون لأمر الله فكانت حربهم حربا دفاعية ليست أداة للهدم والتخريب والإفساد وإذلال الناس وتحقيق المنافع وإشباع المطامع، بل هي حفظ لتوازن ومنعا للظلم والتعسف والطغيان.

٣.رد العدوان الخارجي :

وذلك امتثالا لقوله تعالى :(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (البقرة:١٩٠)، لذا فان المسلمين لا يذهبون للاعتداء على ديار الآخرين ولا يدمروا بيوتهم وصوامعهم ولا يروعوا الآمنين المسالمين ، بل يردوا وبكل قوة من يعتدي على بلادهم وديارهم ويدنس أرضهم ،وهذا يدلنا على ان الحرب في الإسلام تتخذ من مبدأ الدفاع منهجيه وأسلوبا لها تسير وفقه ولا تتخطاه ، فهي حرب دفاعية وليست عدوانية هجومية بغير وجه حق ،فهم لا يلجأون إليها إلا مكرهين مجبرين ، ويطبقون خلالها مواثيق الشرف والأخلاق ولا يقومون بما يتنافى مع مبادئ الإسلام السمحة وقيمه النبيلة ،لذا فإن الحرب في الإسلام ليست حربا للإفناء إنما هي لرد الاعتداء ، وهذا المبدأ فرض على المقاتلين أخلاقيات عظيمة أثناء العمليات القتالية ، ولا ابلغ من نهي النبي (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه بقوله :" لا تقتلوا أصحاب الصوامع " ،وقوله لخالد بن الوليد :" لا تقتلوا ذريه ولا عسيفا "، وكذلك قوله :".... ألا لا تقتلوا الذرية، ألا لا تقتلوا الذرية ".

٤.تحقيق السلام وتثبيت أركانه :

لا يمكن أن يكون للأمة هيبة بغير جيش قوي يدافع عنها عند الشدائد والمحن ، ويمنع العدو من ان تسول له نفسه ان يعتدي عليها ، وان جاهزيه هذا الجيش للحرب في كل وقت وحين ، يجعلها مهيبة الجانب،عزيزة كريمة يهابها أعداؤها ويحترمون إرادتها ، ويمنعهم من التعرض لها عند ذلك يسود الأمن والسلام ، إن السلام – وليس الحرب – هو غاية الإسلام وهدفه، مصداقا لقوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً) (البقرة:٢٠٨)، فلم يدعُ الإسلام إلى الحرب والقتال، بل إن من أهداف الإسلام العامة هو تحقيق السلام بين الأمم، لأن الهدف المتوخى من إتباع الإسلام هو تحقيق السلام وليس الحرب والنزاع ، ويكفي ان نعلم ان لفظه (السلم) ومشتقاتها وردت في القران الكريم أكثر من ١٣٣ مرة، وهذا يدل على عظمه وقداسه الغاية المبتغاة من الحرب في الإسلام .

بعد هذا السرد الموجز لأسباب الحرب في الإسلام يبدو وبما لا يدع مجالا للشك بان الإسلام لم يدعُ إلى الحرب بحد ذاتها كغاية ، ولم يدع إلى القتل والتخريب والدمار ، بل على العكس من ذلك دعا إلى احترام الناس وعدم

ترويعهم قتلهم إخراجهم من ديارهم هدم بيوتهم ، بل كانت غايته هي رد العدوان والدفاع عن النفس ، وتامين حرية العبادة ، وهذا يدلنا على الحرب في الإسلام هي الحرب العادلة (المثالية) (المشروعة) ، التي تكون غايتها رد العدوان ودفع الاعتداء (الدفاع عن النفس) ، وكذلك حماية حقوق الدولة المعتدى عليها من قبل دوله أخرى ،وعكسها هي الحرب غير المشروعة التي تهدف إلى السيطرة وبسط النفوذ واحتلال الأراضي واستغلال الخيرات وممارسة القمع والظلم والإرهاب وترويع الآمنين وقتل المتعبدين .

المبحث الثاني

أخلاقيات الحرب في الإسلام

الحرب في الإسلام هي حرب أخلاقية وليست حربًا انتقامية، وذلك لأن القصد منها هو هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى نور الإسلام وعدله وسماحته ، ولأنها كذلك فقد امتازت بأخلاقيات مثالية وحضارية اقتدت بها الأمم المتمدنة واتخذتها كقوانين إنسانية تطبقها أثناء الحروب والقتال، ومن أبرز مثاليات وأخلاقيات الحرب العادلة في الإسلام ما يلي:

١-احترام العهد:

إنها شيمة من شيم الإسلام العظيم، وصفة من صفات نبيه الكريم ، حتى إنه قبل الإسلام كان يسميه قومه الصادق الأمين ، بل إنه كان صادقًا حتى في المزاح والمداعبة ، فقد أخرج الترمذي عن أبي هريرة أنه قال : قالوا يا رسول الله إنك تداعبنا ، قال :" إني لا أقول إلا حقًا " ، فقد كان (صلى الله عليه وسلم) يحترم العهد الذي يقطعه على نفسه، ولا يحنث به ولا ينكثه ، بل إنه كان يحث أصحابه إذا عاهدوا أن يحترموا العهد ولا ينقضوه، مهما كانت الظروف والأحوال، وإن موقفه (صلى الله عليه وسلم) في غزوة خيبر خير دليل على ذلك ، رغم أن اليهود نكثوا العهود مع المسلمين وحرضوا القبائل على قتالهم ، فإنه (صلى الله عليه وسلم) منع أصحابه أن يعتدوا على بيوتهم، أو ثمارهم، أو على نسائهم ، ومنعهم من دخول بيوت اليهود إلا بإذنهم، وإن موقفه(صلى الله عليه وسلم) من الرجل الذي استجار بأم هانئ ، خير شاهد على ذلك، حيث قال النبي (صلى الله عليه وسلم) لأم هانئ عندما أجارت رجلا من المشركين :" قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ" ،لأن القاعدة في الإسلام هي حديثه (صلى الله عليه وسلم) :" المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم " رواه الحاكم وابن ماجه والدار قطني ، وهنا اعتبار ذمة أي مسلم مهما كان هي ذمة لكل المسلمين ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " ألا لا تحل أموال المعاهدين إلا بحقها " وهنا دعوة نبوية لاحترام المعاهدين وعدم التعرض لهم ، مستجيبا بذلك لقوله تعالى: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ) (التوبة: ٦) ، ومن صور احترام العهد والوفاء بالوعد عند النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه كان (صلى الله عليه وسلم) يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف رجل من الناس فقال : إن لي عندك موعدًا يا رسول الله ، قال :" صدقت فاحتكم ما شئت ، قال :احتكم ثمانين ضائنة وراعيها ، قال :" هي لك وقال :" احتكمت يسيرا " .

ومن الصور الأخرى ما رواه البخاري أن هرقل لما سأل أبا سفيان عن محمد هل يغدر ، فأجاب أبو سفيان : لا ، فقال هرقل بعد ذلك ، وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر ، وكذلك الرسل لا تغدر ".

ويقول عروة بن مسعود الثقفي يصف حال النبي وأصحابه :"إني قد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكا في قومه قط مثل محمد في أصحابه " .

وإن قصة أبي سفيان عندما جاء مع العباس عم النبي عليه الصلاة والسلام ليقابل الرسول (صلى الله عليه وسلم) فرأه عمر بن الخطاب ، فذهب إلى خيمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فلما وصل قال:" يا رسول الله دعني أضرب عنقه " قال العباس " يا رسول الله إني قد أجرته " فلما أكثر عمر قال العباس:" مهلا يا عمر ما تصنع هذا إلا أنه من بني عبد مناف ، ولو كان من بني عدي ما قلت هذه المقالة " فقال عمر :" مهلا يا عباس فوالله إسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم " إنها قصة تدل على احترام الصحابة لعهودهم ووفائهم بها وبرهم بمن عاهدوا .[٨٠]

وقد ثبت عنه (صلى الله عليه وسلم) أنه قال :" ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم ".ومن صور الوفاء بالعهد واحترام الميثاق أيضا حديثه (صلى الله عليه وسلم) الذي يقول فيه :" من كان بينه وبين قوم عهد فلا يَحُلَّنَّ عقدة ولا يشدها حتى يمضي أمده، ينبذ إليهم على سواء" ، وقال (صلى الله عليه وسلم):" من أمن رجلا على نفسه فقتله فأنا بريء من القاتل ".[٨١]

إن نماذج صدق النبي واحترامه للعهد كثيرة لا تكاد تعد ولا تحصى فهو لم يخلف عهدًا ولم يحنث بوعد ، بل إنه (صلى الله عليه وسلم) اعتبر إخلاف الوعد من صفات المنافقين ، وقد علم محمد (صلى الله عليه وسلم) على هذه الصفة الطيبة وساروا من بعده على ذات النهج ونفس الخط .([٨٢])

وهنا نورد شهادة من شخص غير مسلم تدل على احترام العهد والميثاق من قبل المسلمين ، حيث يقول (فريمان) في كتابه تاريخ العرب :" ...وكان هؤلاء الرجال _المسلمين_ مع شراستهم في القتال شديدي الدماثة بعد النصر ، فقد حفظوا عهودهم تمام الحفظ ولم نسمع عن مجازر لا تمييز فيها قد ارتكبوها ،...... إلخ) ([٨٣]).

٢.الوفاء بالوعد:

([٨٠]) محمود شيت خطاب ، مصدر سابق ،ص ص ٢٤١،٢٤٢.

([٨١]) احمد بن عثمان المزيد ، **هدي محمد (صلى الله عليه وسلم) في عباداته ومعاملاته وأخلاقه** ،دار الوطن للنشر ،الرياض ، ٢٠٠٦،ص ص ٩٨،٩٩.

([٨٢]) سعيد حوى ، الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، مصدر سابق ، ص ٣٣- ٣٧ .

([٨٣]) محمد جمال الدين محفوظ ، مصدر سابق ، ص٩٧.

إن صور الوفاء بالوعد عند النبي (صلى الله عليه وسلم) كثيرة ومتعددة فهو لم يخلف وعدا قطعه على نفسه لأحد من الناس حتى ولو كان مشركا ، ومن أبلغ صور الوفاء بالوعد عنده (صلى الله عليه وسلم) ، أنه عندما عقد الهدنة مع قريش كانت شروط الهدنة فيها الغبن والظلم الواضح للعيان، حيث كان من شروطها أن يسلم محمد(صلى الله عليه وسلم) من يلجأ إليه من المسلمين بغير إذن وليه وألا يطالب بتسليم من يلجأ إلى قريش من أتباعه ، حيث أثار هذا الشرط أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) وأغضبهم، خاصة عمر بن الخطاب الذي اعتبره شرطًا مهينًا ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول لعمر :" أنا عبد الله ورسوله. لن أخالف أمره، ولن يضيعني "، ويقول أبو بكر: أشهد أنه رسول الله، ومن صور وفائه (صلى الله عليه وسلم) بالوعد ما أخرجه أبو داود عن عبد الله ابن أبي الخنساء قال :" بايعت النبي (صلى الله عليه وسلم) قبل أن يبعث وبقيت له بقية ، فواعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك ، فنسيت يومي والغد فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه ، فقال يا فتى :" لقد شققت علي، أنا ها هنا منذ ثلاث انتظرك"، وأخرج الحاكم عن حويطب بن عبد العزى في قضية إسلامه، وكيف أنه عندما كان مشركًا تولى مطالبة الرسول بالجلاء عن مكة في عمرة القضاء بعد انقضاء مدة ثلاثة أيام المتفق عليها فيقول حويطب :" ولما قدم الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى عمرة القضاء، وخرجت قريش من مكة كنت فيمن تخلف بمكة أنا وسهيل بن عمرو؛ لنخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا مضى الوقت، فلما انقضت الثلاثة أقبلت أنا وسهيل بن عمرو، فقلنا : قد مضى شرطك فاخرج من بلدنا، فصاح يا بلال لا تغيب الشمس، وواحد من المسلمين في مكة ممن قدم معنا ". [٨٤] ويكفينا قوله (صلى الله عليه وسلم):

" أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا : من إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها " صحيح البخاري –ص.٥٦٧

٣. معاملة الأسرى :

إن أخلاقيات الحرب في الإسلام عديدة ومتنوعة ومثالية ، ولا أدلَّ على ذلك من أن الأمم المتمدنة قد ضمنتها نصوص القانون الدولي الإنساني ، وهذا يدل على الإسلام قد جاء بالمبادئ والقيم الإنسانية النبيلة قبل مئات السنين من اكتشاف الأمم المتمدنة لها ، والحرب في الإسلام حرب أخلاقية حضارية مثالية، لأنها تطبق كل المثل الإنسانية الرفيعة، وتبتعد عن الفتك والدمار والتلذذ بجريان الدماء، كما هي حال كثير من الحضارات التي قامت ومازالت تقوم على مجاري الدماء، وبين أنقاض بيوت الآمنين ، قال تعالى مادحًا محمدًا (صلى الله عليه وسلم) وصحبه الكرام: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً

---

(٨٤) للمزيد النظر:المصدر السابق ، ص ٣٣.

وَيَتِيماً وَأَسِيراً) (الإنسان:٨) ، إنهم فعلا يستحقون هذا المدح الإلهي ، فها هو قائدهم وزعيمهم محمد(صلى الله عليه وسلم) يقول لأصحابه بعد أن جاءوا بثمامة بن اثال بعد أن وقع أسيرا في أيدي المسلمين،:"أحسنوا إساره "وقال لهم :" اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه "بل إنهم كانوا يقدمون له لبن ناقة الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام، وبعد ان رأى هذا الأسير هذه الأخلاقيات العظيمة من محمد (صلى الله عليه وسلم) وحبه دخل في الإسلام ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول لأصحابه في أسرى بدر :" استوصوا بهم خيرا"،وسياسة الإسلام في التعامل مع الأسرى كانت مثالية لدرجة أنه جعل فداء الواحد منهم ليس مالا ولا إكراها على اتباع الدين ولا غير ذلك ، بل إنه جعل فداءهم تعليم أبناء المسلمين القراءة والكتابة ، هل هناك أعظم من القيام بمهمة التعليم والتدريس؟ ، وهذا بحد ذاته إكرام للأسرى عز نظيره حتى في القوانين الإنسانية المعاصرة. ان موقف النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم فتح مكة موقف تاريخي عظيم يشهد على أن حربه (صلى الله عليه وسلم) هي حرب مثالية أخلاقية ، فهو لم يكن متعطشا لدماء ولا هاويا للحرب، بل إن هدفه هو دخول الناس في دين الله أفواجا عن رغبة ومحبة ، فقد وقف عليه الصلاة والسلام مخاطبا قريش وقال لهم :" يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم ؟ ، فقالوا : خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال :" اذهبوا فانتم الطلقاء " ، ألم يكن قادرا على إبادتهم وقتلهم وسفك دمائهم وتخريب ديارهم وتشريدهم انتقاما منهم لما فعلوه به من تشريد وإذلال وإهانة؟ بلى ، ولكن أخلاقه العظيمة التي حباه بها ربه تأبى عليه ذلك، قال تعالى:(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم:٤) " ، هذه هي المبادئ التي تنادت بها البشرية كدستور إنساني تحتكم إليه في النزاعات والحروب قد سبقها اليه محمد عليه الصلاة والسلام بمئات السنين .[٨٥]

٤. احترام الجرحى والمرضى والعزل :

من الآداب العظيمة للحرب في الإسلام هي عنايته بالجرحى والمرضى واحترامه لهم وخاصة الناس المسالمين والذين لاعلاقة لهم بالقتال، فقد أوصى النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحابه بألا يتعرضوا للنساء والأطفال والشيوخ الكبار في السن وكل من اعتزل القتال ، فها هو (صلى الله عليه وسلم) يوصي جنده فيقول لهم :" انطلقوا باسم الله تعالي وعلى بركة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا ولا امرأة ولا تغلوا (أي تخونوا) وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا. إن الله يحب المحسنين ، ونهى (صلى الله عليه وسلم) كذلك عن تعذيب الجرحى، بل إنه أمر أن يداوى ومن ثم يفدى ، وقال (صلى الله عليه وسلم) في ذلك :" لا تعذبوا عباد الله "، وكان (صلى الله عليه وسلم) يغضب عندما يقوم أحد من أصحابه بقتل الضعفاء بل إنه (صلى الله عليه وسلم) كان يظهر الشفقة والعطف على أعدائه إذا رأى فيهم الضعف عند قتاله كما حدث في الحديبية. إن هذه النصوص الكريمة أصبحت فيما بعد لأهميتها وحضاريتها نصوصًا وموادَّ من مواد القانون الدولي الإنساني حيث أوجب القانون الدولي الإنساني الاعتناء بالمرضى والجرحى وقرر حيادية

([٨٥]) للتفصيل انظر: محمد جمال الدين محفوظ ، مصدر سابق ، ٨٠– ٨٢.

المستشفيات ومنع الاعتداء على الأطباء والممرضين وكل ما يتعلق في إسعاف ونقل المرضى والجرحى من ممرضين وكوادر طبية .[٨٦]

٥. دفن القتلى ومنع التمثيل بهم :

نهى النبي (صلى الله عليه وسلم) عن التمثيل بالقتلى في الحرب حيث كانت من عادة المنتصر في الحرب ان يمثل بالقتلى ويشوه الجثث ويسيء إلى إنسانيتها ، ولكن الإسلام والذي هو دين حقوق الإنسان التزم جنده بأمر الله عز وجل، وهو قوله تعالى:(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) (النحل:٧٠) ، وذلك لأن الحرب في الإسلام ليست للتشفي والانتقام، وليست حرب غل وحقد، بل هي حرب دعوة وهداية، القصد منها إخراج الناس من الظلمات إلى النور وإرشادهم لما فيه خيرهم وصلاحهم ، قال (صلى الله عليه وسلم) موصيًا وموجهًا أصحابه :"إياكم والمثلة " ، بل إنه (صلى الله عليه وسلم) أمر بدفن جثثهم واحترامها من أن تكون طعامًا للوحوش الكاسرة والطيور الجارحة ، ففي بدر أمر (صلى الله عليه وسلم) بدفن قتلى المشركين في القليب، بل إنه (صلى الله عليه وسلم) نهى عمر ابن الخطاب عن قطع لسان سهيل ابن عمرو الذي كان يهجو النبي ويؤلب الناس عليه ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم) لعمر :" لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبيًا ".

٦. صيانة الأعراض والأموال :

علمنا من خلال ما سبق أن الحرب في الإسلام لا تشن للعدوان والبغي والانتقام، بل إنها تشن لتوطيد أركان السلام وتصون الأرواح وتحفظ الأعراض والأموال وقد كانت أخلاقيات الحرب في الإسلام سببًا رئيسيًا لدخول كثير من الناس إلى هذا الدين أفواجًا وجماعات لقناعتهم بأنه دين الرحمة والسلام ، يقول (مونتغمري) عن أخلاقيات الحرب في الإسلام :"كان المسلمون يستقبلون في كل مكان يصلون إليه كمحررين للشعوب من العبودية، وذلك لما اتصفوا به من التسامح والإنسانية والحضارة؛ مما زاد من إيمان الشعوب بهم علاوة على تميزهم بالشجاعة والصلابة في القتال وقد أدى هذا إلى اعتناق معظم الشعوب التي انتصر عليها العرب الدين الإسلامي " ، هذه شهادة الأعداء وليس الأصدقاء لذا فهي بريئة من التحيز والتزلف .

([٨٦]) المصدر السابق ، ص ص ٨٦ ،٨٧.

وهل أعظم من وصايا الرسول الكريم لجنده عند خروجهم للقتال، فها هو يوصيهم فيقول :" اغزوا باسم الله ،...... ويوصيهم إلى أن يصل إلى قوله:"ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع " وقد نهى (صلى الله عليه وسلم) عن قتل الضعفاء والنساء والأطفال ، وقد بلغت إنسانية النبي الكريم لدرجة أنه نهي أصحابه أن يدخلوا بيوت اليهود إلا بإذنهم ومنعهم أن يضربوا نساء اليهود، أو أن يعتدوا على ثمارهم في عزوة خيبر. نعم لقد صان أعراض أعدائه اليهود ولم يرد لأصحابه أن ينتهكوا حرمات البيوت، أو يطلعوا على أستارها حتى ولو كانت لأعدائه، وقد سار على نهجه الشريف خلفاؤه من بعده، فها هو أبو بكر الصديق يوصي قائد جيشه الخارج للقتال فيقول له :"....وإذا نصرتم فلا تقتلوا شيخًا ولا امرأة ولا طفلا ، ولا تحرقوا زرعًا ولا تقطعوا شجرًا ، ولا تذبحوا بهيمة إلا ما يلزمكم للأكل ولا تغدروا إذا هادنتم ولا تنقضوا إذا صالحتم ...." ، وكذلك فعل عمر بن الخطاب حين أوصى سعد بن أبي وقاص قائلا:"..... واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله ، يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله ..." وهنا النهي عن ارتكاب المحرمات والاعتداء على الحرمات لأن الله رقيب على عباده يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

٧.عدم الاعتداء على المتعبدين:

لقد كان من قواعد الحرب في الإسلام احترام المتعبدين في صوامعهم حتى ولو كانوا على غير دين الإسلام، وهذا يدل على سماحة الإسلام وعدله وأنه لا يجبر أحدًا على ترك دينه والتحول إلى الإسلام، لأن قاعدته هي " لا إكراه في الدين"، ونعود نتذاكر معًا وصية الرسول الكريم إلى قائد جيشه حين قال له :" ....اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع"، أي المتعبدين في صوامعهم ودور العبادة الخاصة بهم، وروى ابن عباس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال:"لا تقتلوا أصحاب الصوامع " أي الرهبان والمتعبدين ، وقد بلغ من كرم الإسلام ورحمته أن اسقط الجزية عن الرهبان والمنقطعين للعبادة ، فأي إنسانية أعظم من ذلك؟ ، فهو لم يأمر بإبادة المدن عن بكرة أبيها ومسحها عن وجه الأرض كما فعل كثير من القادة العسكريين أثناء حروبهم، فها هو هتلر يقول لجنوده في الحرب العالمية الثانية :" يجب محو موسكو ولينينغراد من على الأرض" ، وكذلك فعل القائد الروماني (ماريوس) عندما غزا بلاد اليونان حيث قال لجنده:" لا تدعوا على ظهرها إنسانا حيا إلا قتلتموه ولا زرعًا الا أحرقتموه ليعرف الناس أنكم الرومان " ، إنه تناقض رهيب بين مبادئ الإسلام السمحة القائمة على الرحمة والتسامح والفضيلة والأخلاق الكريمة وبين من يدعو إلى القتل والإبادة والدمار

والهلاك. إن هذا وغيره من الأدلة الكثيرة دليل على أن حرب الإسلام هي حرب أخلاقية مثالية سمحة.([٨٧])

٨.عدم هدم البيوت وتخريب العمران :

بما أن الحرب في الإسلام غايتها بعيدة كل البعد عن الحقد والانتقام ، ولم يخرج لها المسلمون إلا مجبرين ، ورغم تمتعهم بالقوة والتفوق على أعدائهم ، كل ذلك لم يجعلهم متغطرسين حاقدين ، بل أنهم لم يتخلوا عن أعظم القيم السامية والمثل الأخلاقية الطيبة في أحلك الظروف ، ورغم قدومهم على بلاد هي غريبة بالنسبة لهم ، ومن عادة الجيوش القادمة للحرب أن تدمر وتخرب وتسعى إلي ما يسمى (بسياسة الأرض المحروقة) من أجل تحطيم معنويات العدو والتأثير على قوته ، لكن ذلك لم يحصل ولا في معركة من معارك الإسلام، وإن وصايا الرسول الكريم إلى أصحابه وجنده المتوجهين إلى القتال لهي خير شاهد على ذلك، فها هو (صلى الله عليه وسلم) يوصي جيشه الخارج إلى مؤته بأن :" ....لا يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا المكفوفين ولا يهدموا المنازل ولا يقطعوا الشجر . ".

٩.احترام السفراء والرسل:

تبادل الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام السفراء مع الدول المجاورة له وبعث الرسل إلي الملوك والأمراء والزعماء يدعوهم إلى الدين الجديد لإجراء المفضات حول أمر ما سواء كان أمرا حربيًّا أم سلميًّا ، فكانت تأتيه الرسل للرد على رسائله لتبين له موقف بلادهم ورأيها في الدين الجديد في القضية المتفاوض حولها ، وقد كان لهؤلاء الرسل عند نبينا الكريم كل الاحترام والتقدير وتوفير الحماية لهم ومنع التعرض، أو الاعتداء عليهم بأي شكل من الأشكال ، لأن أخلاقيات الإسلام العظيم ومكارم الأخلاق النبوية تأبى ذلك، لذا فإن الرسل في الإسلام آمنون لا يُقتلون ولا يُعتدى عليهم، ولهم حق الجوار والعهد ما داموا داخل ديار الإسلام، ومن سيرته (صلى الله عليه وسلم) في هذا الخصوص أنه قال لرسولَي مسيلمة عندما سمع منهما كلامًا جارحًا :"لو كنت قاتلا رسولا لقتلتكما " ، وقد كان لهذه السنة الكريمة أثر كبير في بيان أخلاق الإسلام للشعوب الأخرى؛ مما دفع بالكثير من الرسل وملوكهم وشعوبهم إلى الدخول في الإسلام أفواجا وجماعات ، وقصة أبي رافع رسول قريش تؤكد صحة ذلك ، حيث قدم أبو رافع رسولا لقريش للنبي (صلى الله عليه وسلم)

([٨٧]) للمزيد :المصدر السابق ، ص ٨٠.
– يقول ارنولد توينبي : عن انتشار الإسلام بين مسيحيي مصر من الاقباط :" ليس هناك شاهد من الشواهد يدل على ان دخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعا الى اضطهاد او ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين ، بل لقد تحول كثير من القبط الى الإسلام قبل ان يتم الفتح حين كانت الاسكندريه حاضرة مصر وقتئذ لا تزل تقاوم الفاتحين " المصدر السابق ، ص ٩٧.

فقال للنبي :"يا رسول الله إنى لن أرجع إليهم أبدا " ، فقال له الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) :" **"أَمَا إِنِّي لا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ وَلا أَحْبِسُ الْبُرْدَ(أي الرسل) ، وَلَكِنِ ارْجِعْ ، فَإِنْ كَانَ فِي قَلْبِكَ الَّذِي فِي قَلْبِكَ الآنَ فَارْجِعْ"** قال: فرجعت ، ثم أقبلت إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وأسلمت ".

هذه هي الأخلاق النبوية التي كانت القدوة الحسنة والحافز والدافع لكثير من أمم الأرض للدخول في هذا الدين والانضمام تحت لوائه وذلك لأنه (صلى الله عليه وسلم) يقول عن نفسه:" إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" ، ولقد استقت القوانين الدولية من هذه السنة الكثير الكثير حيث منعت الاعتداء على البعثات الدبلوماسية والقنصلية واعتبرت ذلك من الأمور الخطيرة التي يؤدي إلى توتر العلاقات الدولية وقد تؤدي إلى حروب طاحنه ، ولعل تاريخ العلاقات الدولية يحفل بالكثير من القضايا في هذا الخصوص .

١٠.العفو والصفح :

إن الله بعث محمدًا عليه الصلاة والسلام رحمة للعالمين وذلك مصداقا لقوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (الأنبياء: ١٠٧). فقد كانت رحمته (صلى الله عليه وسلم)في كل وقت وحين، فهي في الحرب كما هي في السلم. والنماذج من ذلك كثيرة ، يقول سعيد حوى في كتابه (الرسول (صلى الله عليه وسلم)):"والناس الذين يخوضون المعارك ويسوسون البشر تقسو قلوبهم وتجف دموعهم ، ونادرا ما تجد الموغل في ذلك متصفا بصفه الرحمة ، ولكن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ومن اقتدى به ليسوا من هذا الطراز ، فمهما شئت عندهم من شجاعة وقوة وشدة وصبر وجدت ،ولكنها صفات لا تطغى على خلق الرحمة أبدًا ، بل كما ان هذه الصفات في كمالها فكذلك خلق الرحمة عندة صلى الله عليه وسلم في كماله"،[٨٨].

وقد سجل التاريخ مواقف كثيرة من سيرة الفتوحات التي قام بها جند الإسلام تدل على الرحمة والتسامح والعفو والصفح؛ مما ترك آثارًا عميقة في نفوس سكان الديار المفتوحة، فكان دافعًا لهم لأن يدخلوا في دين الإسلام عن رغبة ومحبة ، فقد كتب المسيحيون في بلاد الشام إلى أبي عبيدة أثناء فتح الشام، يقولون:"يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، وأنتم أوفى لنا وأرأف بنا واكف عن ظلمنا وأحسن ولاة علينا ..." ، هذه شهادة أهل البلاد المفتوحة في المسلمين ، ومثل حال هولاء القوم الكثير كالفرس الذين لم يقاوموا المسلمين الفاتحين لبلادهم لأن حكامهم قد استبدوا وظلموا ، وكذلك الحال في أسبانيا عندما دخلها المسلمون فوجدوا سكانها يتعرضون للمذلة والإهانة على يد القوط، فرحب السكان بهم وفتحوا بسهولة ويسر ، يقول الكونت (هنري دي كاستري) :" إن المسلمين امتازوا بالمسالمة وحرية الأفكار في المعاملات ومحاسبة المخالفين .." ،شهادات وشواهد كثيرة

---

(٨٨) سعيد حوى ، مصدر سابق ،ص١٤٣.

تدل على رحمة الرسول الكريم في اشد المواقف وأعسرها، وفي أحلك ساعات القتال، بل وهو في أوج قوته ، ويكفي أن نتذكر هنا موقفه من الناس الذين آذوه وضربوه وطردوه من بلدته التي وولد فيها ، فعندما جاءها فاتحًا وهو في عزة ومنعة قال لهم :"اذهبوا فأنتم الطلقاء" ، إنها رحمة نبوية ليس بعدها رحمة ، حتى إنها طالت الحيوان قبل الإنسان ، فها هو يأمر جنده الذين أفزعوا الطيور من أعشاشها فيقول لهم :"من فجَّع هذه بولدها ردوا ولدها إليها " ، فأية رحمة وأية رأفة هذه التي يتصف بها النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، وهنا دعوة للجاحدين المنكرين لأن يعلموا أن النبي محمدًا لم يكن إرهابيا قاتلا ولم يكن دمويًّا مخربًا بل كان رحمة مهداة ونعمة مسداة لكل العالمين .[٨٩]

١١.عقد الصلح والمعاهدات:

أمر الله سبحانه وتعالى نبيه أن يرضى بالصلح وأن يقبل دعوة السلم إذا ما دعي إليها، حيث قال تعالى:(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (الأنفال:٦١)، والهدنة هي اتفاق بين الطرفين المتحاربين على وقف القتال لمدة يتفق عليها الطرفان وهي أنواع "فهي إما عامة جزئية (محلية) ، فالهدنة العامة يسري وقف إطلاق النار فيها على كل القوات المتحاربة وعلى كل جبهات القتال ، والجزئية هي التي يقتصر وقف إطلاق النار فيها على جزء من القوات المتحاربة وليس كلها، وشروط الصلح في الإسلام ان يكون فيه مصلحة عامة وألا يكون فيه إباحة لما حرمته الشريعة، أو تحريم لما أباحته الشريعة مصداقا لقوله (صلى الله عليه وسلم):"الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحلَّ حراما أو حرَّم حلالا "[٩٠] .

---

(٨٩) للمزيد من التفاصيل انظر :محمد جمال الدين محفوظ ، مصدر سابق ، ص ٨٣–٨٥.

(٩٠) للمزيد من التفاصيل راجع : محمود شيت خطاب ، مصدر سابق ،٢٩.

المبحث الثالث

مبادئ الحرب التي طبقها النبي (صلى الله عليه وسلم)

لا شك أنَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) كان قائدًا عسكريًّا وإداريًّا فذًّا، والشواهد على ذلك كثيرة وواضحة للعيان ، ولعلَّ ما سردناه من حقائق في الفصول والمباحث السابقة يبين جزءًا من عبقرية القيادة التي كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يتمتع بها، ولا شك أيضا أن للقتال فنونا وأساليب ومبادئ وطرائق ، فالعسكري الذي مارس القيادة العسكرية يعرف هذه الحقيقة ، فالقتال يحتاج إلى الذكاء والفطنة والنباهة ورجاحة العقل والإدراك وبُعد النظر والفهم العملي والعلمي للوقائع والإمكانيات الموجودة، إضافة إلى معرفة الرجال والمكان والزمان معرفة مفصلة تؤدي إلى تحقيق الأهداف والنجاح في العمليات المنوي تحقيقها ، أما مبادئ الحرب فهي حقائق أساسية تؤثر على كيفية تنفيذ القتال وهي عبارة عن مجموعة من الآراء والأفكار المنطقية، التي جاءت كنتيجة لتجارب القادة الفعلية في الحروب والمعارك التي خاضوها، وهي مترابطة ومتشابكة مع بعضها البعض وتشكل مجتمعة الأسس التي تبنى عليها العمليات القتالية، وقد عرفها اللواء الركن محمود شيت خطاب بأنها :" الجوهر الذي ينشئ في القائد السجية الصحيحة في تصرفاته في الحرب ، وهي العنصر الذي يتكون منه مسلك القائد في أعماله بصورة طبيعية وغير متكلفة "[٩١]، لذا فقد استخدم (صلى الله عليه وسلم) مبادئ في حروبه ومعاركه درسها القادة المحدثون وعرفوا قيمتها وأدركوا أهميتها بل إنهم سعوا إلى تطبيقها في حروبهم ومعاركهم واقتدوا بها لإدراكهم انها طريق النصر وتحقيق الأهداف ،ومن أعظم المبادئ التي طبقها النبي (صلى الله عليه وسلم) في الحرب ما يلي:

١.القيادة المثالية :

لاشك أن القائد هو أساس المعركة وهو السبب الأول في النجاح أو الفشل ، وقد رأينا فيما سبق كيف مارس النبي (صلى الله عليه وسلم) القيادة بأبهى صورها ، فقد تجلت قيادته بكل مقومات النجاح المطلوبة فقد ترحت مابين الحزم والقوة وبعد النظر والشورى والعطف والرحمة واحترام الرأي الآخر والشجاعة والإقدام والنظام والضبط والمعنويات العالية والعقيدة الراسخة والثقة المطلقة بالله وبجنده ، والصبر وبعد النظر والمحبة المتبادلة بين القائد والجنود ..... إلخ من مقومات القيادة المثالية التي لم يسجل عليها نقطه سوداء واحدة في حياتها حتى إنه كان(صلى الله عليه وسلم) يلقب بالصادق الأمين من قومه الذين حاربوه، ويكفي أن يشهد له الأعداء قبل الأصدقاء، فها هو (وليام مايور) يقول عنه :" .. ينسب إلى محمد في شبابه من سيرة التواضع والاحتشام وطهارة الخلق على صورة نادرة بين المكيين ،.... لم يولع محمد

---

(٩١) انظر محمود شيت خطاب ، مصدر سابق ، ٣١٢.

بالثراء أبدًا ، كانت حياته لا سيما في فجرها المبكر تتميز بالحنو والعطف على اليتيم والفقير والأرامل والبائس والضعيف والرقيق ولم يذق الخمر أبدا ولم يلعب الميسر ....." ، بل يكفي فيه قوله تعالى:(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم: ٤). إن قيادة بهذه الخصائص وهذه الصفات لهي جديرة بالثقة والاحترام من قبل المرءوسين والأتباع وهذا ما كان. حيث كان جند الإسلام يفدون قائدهم وإمامهم بالمهج والأرواح ويتبعونه إلى حيث يريد ولسان حالهم يردد: "امض والله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك..." .

٢.المفاجأة :

إنها من أكبر العوامل المهمة والمؤثرة في الحرب وأكثر ما يتجلى تأثيرها على المعنويات لأنها تسبب الإرباك والدهشة للعدو ، والمفاجأة قد تكون بالزمان أو المكان أو التكتيك أو السلاح .... إلخ الذي تستخدمه القوات. إن نتائج المفاجأة الناجحة ستكون عظيمة على العدو لأنها تفقد توازنه وتشتت قواته وجهده ، وقد طبقها النبي (صلى الله عليه وسلم) في مواطن كثيرة ومنها استخدامه المنجنيق والدبابة في حصار الطائف [٩٢]، وكذلك فإن استخدام الرسول(صلى الله عليه وسلم) لأسلوب الصف في بدر كان تعبئة جديدة ساعدت على السيطرة وضبط القوات والاحتفاظ باحتياط للطوارئ وفاجأت العدو ، وكذلك فقد كان حفر الخندق مفاجأة ما بعدها مفاجأة فهو أسلوب جديد دخل في أساليب العرب الحربية لأول مرة ، وقد كان فكرة من صحابي جليل هو سلمان الفارسي الذي اعتبره الرسول (صلى الله عليه وسلم) من أهل البيت تكريمًا وتقديرًا وتشجيعًا لفكره وإبداعه ، حيث قال فيه (صلى الله عليه وسلم) :" سلمان منا أهل البيت" وفي هذه المقولة الشريفة دروس كثيرة تدل على عظمة هذه الرسالة وهذا الرسول يستنبطها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وكذلك فإن مسير الاقتراب ليلا الذي طبقه المسلمون في مسيرهم إلى خيبر ووصولهم ليلا إليها دون أن يتمكن اليهود من معرفة وصولهم كان مثلا عظيمًا على المفاجأة التي حققت أفضل النتائج والانتصارات ، إن الامثلة على المفاجأة في العسكرية الإسلامية كثيرة ومواقفها عديدة ولكن ذكرنا بعضًا منها لنبين كيف طبقها النبي (صلى الله عليه وسلم) وما هي ثمراتها ؟

٣.حشد القوة (الجهد) :

إن تجميع القوات الكافية والمناسبة في الزمان والمكان المناسبين هو سبب كافٍ من أسباب التغلب والانتصار على العدو وقد طبقه المسلمون في كل معاركهم وغزواتهم تقريبًا، فقد طبقه النبي (صلى الله عليه وسلم) في فتح مكة

---

(٩٢) **المنجنيق** هو :"عربه ذات عجلتين في رأسها حلقه او بكرة يمر بها حبل متين في طرفه الأعلى شبكه في هيئه كيس توضع في الشبكة حجارة او مواد محترقة ثم تحرك بواسطة العامود والحبل فيندفع ما وضع بالشبكة من قذائف ويطير إلى الأعلى فيحرق ويدمر ما يسقط عليه " .
– إما **الدبابة** فهي : " آلة من الخشب الثخين المغلف بالجلود تركب على عجلات مستديرة يستطيع المشاة الاحتماء بها من النبال والسهام " ، انظر :محمود شيت خطاب ،مصدر سابق ،ص ٢٥٤ .

عندما جمع حشدًا كبيرًا من العرب الذين شكلوا أساس الدولة الإسلامية المتينة، حيث تشكلت قوة المسلمين من المهاجرين والأنصار وقبيلة سليم وتميم وأسد وغفار وجهينة وقيس وغطفان وعدد كبير من قبائل العرب زاد عددهم على عشرة ألاف مقاتل ، ولقد كان للاستخدام المناسب لهذه القوات أكبر الأثر في تحقيق النصر العظيم بفتح مكة بكل كبرياء وعظمة وعزة واستسلمت قريش وهي صاغرة لهذه القوة العظيمة ودخل الناس في دين الله أفواجا .

٤.الاقتصاد بالجهد:

إن ظروف الحرب أحيانا تفرض على القائد استخدام القوة والموارد المتوفرة لديه بحذر وبعناية فائقة واستخدامها في الزمان والمكان المناسبين ، لأن الإسراف والتبذير يؤديان إلى تشتيت وبعثرة الجهود وبالتالي الخسارة المادية والمعنوية ، وقد نبذ الإسلام الإسراف والتبذير ودعا إلى الاقتصاد في كل شيء حيث يقول (صلى الله عليه وسلم):" ما عال من اقتصد " ، وكذلك يقول:"الاقتصاد نصف المعيشة " ،وأيضًا :"كلوا واشربوا في غير إسراف ولا مخيلة "، لذا فقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يستخدم ما يتوفر له من قوة مادية ومعنوية – خاصة في الحرب – بكل تدبير وحكمه واقتصاد .

٥.الأمن :

اعتمد النبي (صلى الله عليه وسلم) كثيرًا على هذا المبدأ وذلك لأهميته في إخفاء القصد والنية عن العدو مما يحقق المباغتة والمفاجأة ويشتت القوات المعادية ويبعثر جهودها مهما بلغت من القوة ، وقد اهتمت الجيوش الحديثة بهذا المبدأ كثيرًا، حيث جعلت للاستخبارات والاستطلاع إدارات مستقلة مدعومة بأفضل الإمكانيات المادية والمعنوية والطاقات البشرية ذات الكفاءة والمؤهلة، ولعل مسير جيش الإسلام الفاتح العرمرم إلى مكة ووصوله إلى ضواحيها دون أن يشعر به أهل مكة لهو خير دليل على حرص النبي وجنده على الأمن وإخفاء القصد والنية ، وقد استخدم المسلمون ما يسمى بدوريات الاستطلاع من اجل الحصول على المعلومات عن العدو، التي كان لها أكبر الأثر في تحقيق النصر في معارك كثيرة ولعل معركة بدر خير مثال على ذلك.

٦.الإدارة :

إن الإدارة الناجحة المبنية على التخطيط السليم هي أساس نجاح أي عمل مهما كان ، وتزداد أهمية إدارة الموارد في المعركة، وذلك بسبب الظروف الطارئة التي تنشأ أثناء القتال ، فالإدارة في المعركة تتطلب حسن التصرف بالإمكانيات الموجودة واستخدامها بأفضل طريقة ، ويدخل في إطار الإدارة كل ما يتوفر في الدولة من إمكانات مادية ومعنوية بهدف تسخيرها لخدمة الأعمال العسكرية. وهذا يتطلب تهيئة الاقتصاد القومي وحشد كل الإمكانات المتوفرة لخدمة المهمة، هذا وقد طبق المسلمون ما يسمى بمفهوم (الحرب الإجماعية) والتي تعني إعداد الشعب كله ماديًا ومعنويًا للمعركة وتسخير اقتصاديات البلاد للحرب، وهو ما يسمى بعصرنا الحالي (التعبئة

العامة) أو النفير العام ، وهذا الأمر لا ينجح بدون إدارة ذكية وواعية ومبنية على أسس علمية صحيحة ، وهذا المبدأ طبقه الرسول (صلى الله عليه وسلم) طيلة حياته لأنها كانت كلها جهادًا وتضحية ودفاعًا عن الدين ، فالإعداد للحرب كان مستمرًا ومتصلًا تنفيذًا لأمر الله عز وجل: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) (الأنفال :٦٠) وفي مجال الإعداد والتهيئة يقول (صلى الله عليه وسلم) :" من جهز غازيا فقد غزا ، ومن خلف غازيًا في سبيل الله فقد غزا " رواه الترمذي والبخاري ومسلم. ويدخل في إطار الإدارة الناجحة تهيئة الأرزاق والمياه والتطبيب والذخيرة للمقاتلين وفق خطط مدروسة ومحكمة ، وقد سبق أن بينا كيف كان تعاون الصحابة عليهم رضوان الله وتسابقهم، لتوفير كل مستلزمات الحرب من طعام وشراب وسلاح وأموال حتى إن بعضهم قد تبرع بكل ما يملك، ولم يُبق لأهله شيئًا، مؤمنين بأن ما عند الله هو خير وأبقى.

٧.المعنويات:

تحدثنا في موضع سابق عن أهمية المعنويات في النصر في المعركة، والمعنويات في الجيوش تنبع من مصادر مختلفة تهيأت وتوفرت للمسلمين كان أهمها: الثقة بالنفس والسلاح والقيادة الفذة العبقرية ، والإيمان بالهدف ، عدالة القضية التي يدافع عنها، تحرر النفس من الخوف من الموت أو فوات الرزق والإيمان المطلق بأن كل ذلك بيد الله عز وجل، ولا شك أن جند الإسلام قد تحلوا بالمعنويات العالية التي كانوا يستلهمونها من قائدهم محمد(صلى الله عليه وسلم) الذي كان يُقدم على القتال بروح معنوية عالية واندفاع كبير، وكان من الشجاعة بحيث يلوذ به المقاتلون إذا حمي الوطيس، واشتد القتال، واحمرت الحدق " ومواقفه(صلى الله عليه وسلم) في رفع المعنويات كثيرة وأساليبه متنوعة ، وإنَّ استعراضًا بسيطًا لبعض الغزوات والمعارك يُظهر لنا الأساليب والوسائل التي كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يستخدمها لرفع معنويات جنده، فها هي معركة بدر وفتح مكة وتبوك كلها تحطيم لمعنويات العدو ورفع لمعنويات جند الإسلام ، وقد تنبهت الجيوش الحديثة لأهمية المعنويات فأولتها كل الاهتمام والرعاية والعناية وأنشأت لها الإدارت المختصة التي تقوم ببث وغرس الروح المعنوية في نفوس الجند .[٩٣]

٨. التعاون :

في الجيوش يصعب النجاح والانتصار في المعركة بدون تعاون كافة الصنوف والقطاعات المتواجدة في ارض المعركة مع بعضها البعض، وكذلك

---

(٩٣) للمزيد من التفصيل انظر : محمد جمال الدين محفوظ ، مصدر سابق ، ص ٢٥١ – ٢٦٣ .
– محمود شيت خطاب ،مصدر سابق ، ص ٣٢٨.

بين القوات المقاتلة والقوات الاحتياطية والخلفية ، وكذلك التعاون بين كافة قطاعات وأجهزة الدولة مدنية وعسكرية وصولا إلى ما ذكرنا سابقًا وهو التعبئة العامة، أو النفير العام الذي يلعب دورًا كبيرًا في تحقيق الأهداف والغايات ، ولعل استعراضًا بسيطًا للأساليب التعبوية التي كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يطبقها في غزواته ومعاركه تنبئنا بما لا يدع مجالا للشك بأن التعاون كان جليًا بين صنوف المقاتلين من فرسان ورماة ومشاة وتمريض وتطبيب وإمداد وتزويد ، وللتدليل على أهمية التعاون بين المقاتلين في المعركة هو ما قام به الرماة من مخالفة لأمر الرسول(صلى الله عليه وسلم) وعدم تعاونهم في إنجاح المهمة ، كيف كان السبب الرئيسي في صعوبة تحقيق النصر التام في معركة أحد .

٩.التعرض :

هو مبدأ من مبادئ الحرب المهمة التي تمكن من السيطرة على العدو ، وذلك من خلال عدم السماح بضياع تفويت أي فرصة دون إحكام الهيمنة والسيطرة عليه وإيقاع اكبر قدر من الخسائر به ، والتعرض وسيلة مهمة تمكن من سحق العدو والقضاء عليه وليس هناك من وسيلة غير التعرض تمكن من تحقيق النصر على العدو ، وقد طبق النبي (صلى الله عليه وسلم) هذا المبدأ في كل غزواته تقريبًا حيث كانت الروح القتالية هي الحاضرة ، وهناك مبدأ عسكري حديث يقول: إن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم ،لأن الدفاع وحده لا يحقق النصر وهذا ما سار عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) في معاركه وغزواته .[٩٤]

١٠- اختيار القصد :

إن الخطط العسكرية لا تبنى بشكل عشوائي فلا بد من تحديد الأهداف والغايات لها؛ ليعرف المقاتلون ما هي وجهتهم، ومن هو عدوهم، وما هو الهدف من قتالهم. وفي الغالب فإن مقصد القتال هو تحقيق النصر من خلال تدمير قوة العدو وسحقه ، والقائد الحاذق هو الذي يختار هدفه بعناية فائقة وفق إمكاناته وإمكانات جنوده، وبما يتلاءم مع الإمكانات المادية والمعنوية المتوفرة لديه ، فإن كان الوضع يسمح له بالقتال والاشتباك أقدم عليه وإن عجز عن ذلك - لأسباب هو أعلم بها- لجأ إلى أسلوب آخر قد يكون الهدنة، أو الصلح، أو المعاهدة ...إلخ ، وقد طبق الرسول الكريم هذا المبدأ بشكل متقن ودقيق حيث كان لكل حركة من تحركاته في السلم الحرب مقصد وغاية ، ومن أمثلة ذلك ما فعله (صلى الله عليه وسلم) في الحديبية حيث كان مقصده منها هو التأثير على معنويات قريش بدون أن يقاتلها، وبقي مصرًّا على مقصده رغم اقتراب

---

(٩٤) المصدر السابق ، ص ٣١٣.

قوات قريش من قواته وتهيئتها لقتاله، إلا انه لم يرد قتالها والدليل على ذلك هو أنه أطلق سراح المشركين الذين هاجموا معسكر المسلمين دون أن يلحق بهم الأذى ، وبقي(صلى الله عليه وسلم) مصممًا على هدفه حتى تحقق له وهو عقد الصلح وليس القتال.

هذه بعض مبادئ الحرب التي طبقها النبي (صلى الله عليه وسلم) في حياته العسكرية والتي كانت دروسا لكل من احترف العسكرية وأرادها مهنة شريفة يحقق من خلالها الأهداف العليا السامية لبلاده وأمته ووطنه، دون أن يؤذي الآخرين أو ينتهك أعراضهم أو حرماتهم أو يدمر منازلهم أو يمثل بقتلاهم، أو يحرق حضارتهم ، وهذه المبادئ هي رسالة لكل من سلك درب القتال، ليتعلم أن الإسلام كان رحيمًا خلوقًا شريفًا طاهرًا حتى في أحلك اللحظات وأصعبها، وهي لحظات القتال التي يُباح فيها- ومن وجهة نظر الحروب الحديثة التي نراها اليوم – كل الممنوعات[٩٥] ، إنها مدرسة عسكرية مثالية أخلاقية تصلح أن تكون قدوة ونبراسًا يهتدي به واضعو نظم الحرب والقتال في هذا الزمان .

---

(٩٥) هنا إشارة إلى ما ارتكبته الأمم المتمدنة ومن خلال الحروب العالمية الأولى والثانية من قتل وتدمير وسحق لكل ما كان يمكن ان تقع عليه العين.